الشهاب الراصد

تأليف

محمد لطفى جمعه

محام امام محكمة الاستئناف العليا بمصر

حقوق الطبع والنقل الى اللغات الاجنبية محفوظة

(المطبوعة الأولى)

عني بنشره الفاضل ابو ذر رؤوف

١٣٤٤ — ١٩٢٦

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم بمصر

الشهاب الراصد

تأليف

محمد لطفي جمعه

محام امام محكمة الاستئناف العليا بمصر

حقوق الطبع والنقل الى اللغات الاجنبية محفوظة

(المطبوعة الأولى)

عني بنشره الفاضل ابو ذر رؤوف

١٣٤٤ — ١٩٢٦

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم بمصر

mustafa kurmed
4 11 2010

مقدمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله !

تعود المؤلفون أن يفتتحوا كتبهم بكلمة وجيزة جامعة ، تدل القاريء على روح الكتاب والغاية من وضعه ، وقد جعلنا الفصول الاولى من هذا الكتاب وافية بهذا الغرض ، فهي بمثابة مقدمة الكتاب .

هذا ويكفي أن نشير بهذه الجملة الافتتاحية الى ان كتابنا « الشهاب الراصد » بحث انتقادي تحليلي لكتاب « في الشعر الجاهلي » الذي وضعه الدكتور طه حسين استاذ اداب اللغة العربية بالجامعة المصرية بعد أن القى مواده دروساً ومحاضرات في الجامعة اولاً وفي مسرح دار التمثيل العربي بالحديقة ثانياً فاذاع اراءه ثلاث مرات الاولى بين الطلاب والثانية على جمهور من الاعيان والادباء والثالثة في كتاب مطبوع فاعطاها اقصى ما يعطيه مؤلف لافكاره من النشر والشيوع بين الطبقات . فلما وقع لنا الكتاب وقرأنا فصوله دهشنا مما حواه ، مخالفاً للعلم والتاريخ والادب ورأينا من واجبنا أن نقوم بفرض نقده من تلك النواحي دون أن نتعرض للمسائل الدينية التي اثارها المؤلف لعلمنا بان في مصر وفي العالم العربي علماء فطاحل يستطيعون الرد عليه من الناحية الدينية ،

وقد اشتهر المؤلف بحب الانتقاد يدعو نفسه كاتباً انتقادياً فيسره بلا ريب أن يتقدم الباحثون الى نقد كتابه فان الانتقاد في الغرب انفع الآلات لتقدم العلوم والفنون وارتقاء الآداب فلا تخلو صحيفة او مجلة اوروبية من محررين اخصائيين للانتقاد ما يكون له قيمة من تأليف او تصنيف او ابتكار او ابتداع حتى ان المؤلف الذي لا ينتقد تأليفه منتقد منهم يعد نفسه ساقط المنزلة

بين اقرانه ولا نظن المؤلف يقتدي بمثل من امثال الحراثين «اذا صار لك صيت بين الحصادة فاكسر منجلك» فهو بلا ريب يعلم بمزية الانتقاد ولا بد أن يقبل ذلك احسن قبول . فليس الانتقاد مما يثبط همة امثاله ولا نظنه واثقا بنفسه فيراها وراء النقد لان ثقة الانسان بنفسه مجلبة للخطاء .

لقد كان حقاً علينا أن ندافع بالحق عن السلف الصالح وان لا نترك ميراث اجدادنا الامجاد لعبث العابثين واحقاد الشعوبيين فان كتاب « في الشعر الجاهلي » ليس مقصوراً على الادب العربي قبل الاسلام كما يدل عنوانه على ذلك بل أن مؤلفه تناول المدنية العربية في الجاهلية والاسلام ونال منها تجريحاً وقذفاً ونحن المصريين موطناً واخلاف هؤلاء العرب وابناء تلك المدنية الاسلامية عت الى العرب باقوى الاسباب فلغتنا التي بها نكتب ونتكلم عربية ومدنيتنا التي عشنا ونعيش في ظلالها عربية ، وهذا المؤلف لم يترك فضيلة للعرب في علومهم وتاريخهم وادابهم وعقائدهم دون أن يحاول هدمها بشدة وقسوة وتهكم واستهزاء لم نعهد لها مثيلاً في كتب العلما فيخيل للقاريء ان المؤلف يلعب ويلهو باشرف الاشخاص واسمى المباديء التي خلفتها المدنية العربية الاسلامية منذ اربعة عشر قرناً . وكنا نود أن نظن بكتابه خيراً على حد قول عمر بن الخطاب فلم نجد له في الخير محملاً وحاولنا ونحن نقرأ كتابه أن نلمح بصيصاً اشبه بالبصيص الذي يراه الانسان وهو سائر في احد الاسراب اذا قارب آخره ولكننا لم نلمح شيئاً في وسط هذه الظلمات المتكاثفة من اول الكتاب الى آخره لانه للاسف طافح بالاوهام فهو سراب يحسبه الانسان من بعيد ماء . والحقيقة أن كتاب « في الشعر الجاهلي » عبارة عن بعض نصوص صحيحة او مزورة و بعض اكاذيب واساطير وشيء من التهويل وشيء من السياسة وشيء من الخرق وكثير من الشعوبية والتعصب ضد العرب وعقائدهم .

ولم يترك المؤلف نبياً او صديقاً او عالماً او راوية او شاعراً الا ابترك في

عرضه ابتراكاً ونال من شرفه وسمعته . واننا نتحدى هذا المؤلف ان ينقل كتابه او جزءاً منه الى لغة اجنبية فان وافقه ربع عالم على بعض ما جاء فيه كنا مخطئين وكان هو مصيباً ولكننا واثقون من انه لن يجد من نفسه شجاعة على تفسيره بلغة افرنجية لئلا يصبح اضحوكة الاجانب وهم في العلم والتاريخ لا يرحمون مدعياً ولا يصبرون على سخف يدلي به مقلد او مغرور. ولعل الاستاذ من شدة حسن ظنه بنفسه وبكبريائه العلمي اساء الظن بالامة المصرية كلها فكتب لقوم يحسبهم خطأً جهالاً لا يعلمون من مراجع بحثه شيئاً . ولا يستطيعون وقفه عند حده وقد استكشف اليوم خطأه بعد ان رفعنا الحجاب عن مغامزه المقصودة وأغلاطه التي ساقه اليها عدم المامه بموضوعه.

هذا وقد انجزنا وضع كتاب « الشهاب الراصد » في وقت ضيق وانشغال دائم ونشرنا بعض فصوله في جريدة المقطم وما نشر في الجريدة لا يتجاوز ثلث مواد الكتاب

وقد حاولنا جهد الطاقة ان نبين لقراء العربية فن الانتقاد على حقيقته في الشرق والغرب كما حاولنا ان نرجع بعض الحق الى نصابه ورددنا ما نقله المؤلف محوراً ومشوهاً الى اصوله واستشهدنا بآراء العلماء الثقات في الشرق والغرب وناقشنا نظريات المؤلف التي ليست من العلم او التاريخ او الادب في شيء وأتينا بما يلزمه الحجة ان كان مخلصاً في البحث عن الحقيقة

يقول المؤلف انه ليس لنا ان نتمسك بالقديم لمجرد قدمه وهو يعد اعظم مفاخر المدنية العربية في القوانين والانظمة والعلوم والآداب قديماً يجب تركه . ولا يؤيد اقواله بدليل او مرجع صحيح او اسناد يعول عليه . فنقول ليس لنا ان ننبذ القديم لمجرد قدمه فما كل قديم ينبذ ولا كل جديد يؤخذ والواجب على من رأى المصلحة في القديم ان لا يتركه ما لم تقم الادلة على صحة الجديد وهذا ما فعلته الامم الاوروبية فلم تترك قديمها بل فتشت عنه وبثته وأحيت العلوم والآداب التي كانت مفاخر اليونان واتخذتها اساساً متيناً للجديد في عهد احياء

العلوم ،على ان معظم قديمهم اساطير وخرافات وأخبار لم يستطع احد من علمائهم تحقيقها الا في الندرى . بيد ان قديمنا معظمه حقائق وشرائع وقوانين وآداب رائعة . اما في اللغة فقد جربنا القديم مئات السنين فقام بالكفاية وظهر صلاحه لقبول كل جديد نافع ولم نر قبل هذا المؤلف عالماً او استاذاً يسعى بالوهم والحيلة ليقطع ما بين السابق واللاحق ليضيع على المتأخرين تراث اسلافهم المتقدمين . ولم يفهم احد وجهاً لتشبث المؤلف باحداث هذه الفتنة ولا نريد ان نفترض ان يكون مصاباً بداء الشعوبية وهو تفضيل العجم على العرب ونميل الى الظن بأنه مقلد الغالب كما قال ابن خلدون . ولعل تشبثه وتعصبه لفكرة تسلطت على ذهنه وهي تشويه سمعة العرب ومدنيتهم وآدابهم ، ضربا بينه وبين الحقيقة حجاباً مستوراً

يرجع الرومان بتأسيس مدينتهم رومة الى القرن الثامن ق.م. ويبنون هذا التاريخ على اسطورة وهي مولد « روميولوس » و « رينوس » ورضاعتهما من ذئبة. ولا تزال الذئبة التي اتخذها هذان التوأمان ظئراً في حديث الخرافة رمزاً ممثلاً ومحفوراً ومصوراً في هياكلهم وقصورهم ودواوينهم الى يومنا هذا.

اما العرب الذين ينتسبون حقاً الى الشعوب السامية وينحدرون اصلاً وفرعاً من اسماعيل وابراهيم باجماع المؤرخين الاقدمين والمحدثين فقد استعظم المؤلف عليهم ان يؤسس جدهم الاعلى ابراهيم بناء الكعبة وهي قاعة صغرى لا يصعب تشييد مثلها على اضعف الخلق ، وجعل يتقعر في اختلاق الاقاويل والاباطيل لاخراج اصول تاريخ العرب القديم من حيز الحقائق الى حيز الخرافات والاساطير وهذا المؤلف الذي حمل على المدنية العربية الاسلامية حملة شعواء لم يتقدم الى طلابه وقرائه وسامعيه بدليل علمي او عقلي مقبول بل يريد ان يكون قوله حجة الحجج وبرهان البراهين وغاية تنتهي اليها ابحاث المتقدمين والمتأخرين

والناس في هذا الزمان ايها الشيخ لا يرضون الا ان يكون لهم عقول يفهمون بها ويستعينون بها على النقد والتمحيص في غير تحكم ولا طغيان ولم يأت على

العرب زمن كانت تؤخذ فيه اقوال امثالك قضيـة مسلماً بها فعلينا ان نقتدي بهم في هذا السبيل ،واذا كنت تقول في كتابك انك لا تقدس احداً من الذين يعاصرونك ولا تبرئه من الـكذب والانتحال ولا تعصمه من الخطأ والاضطراب فاذا تحدث اليك بشيء او نقل لك عنه شيء فأنت لا تقبله حتى تنقده وتتحرى وتحلل وتدقق في التحليل (ص ١٢٨ من كتاب « في الشعر الجاهلي ») فلا بد ان تخضع لهذه القاعدة فيما تقول وعلي .

لقد كان لاتخاذك اسم ديكارت ومنهج ديكارت ستاراً تخفي وراءه نياتك اثراً في النفوس فلما اعترضك بعض اساتذة دار العلوم الذين سميتهـم انصار القديم نهضت تعيب عليهم جهلهم بديكارت وفلسفته وتغري بهم وزارة المعارف لتقصيهم عن مناصب التدريس لما ادعيت به من انهم يجهلون اسم مؤسس الفلسفة الحديثة ومبادئه . وفي الحق انك استخدمت اسم هذا الفيلسوف الجليل وأنت خاطىء وألحقت بمذهبه اذى وأنت متعمد فلم يكن الرجل من الفلاسفة المتشككين حتى تتحكك به وتتعلق بأكفانه ولم يقل احد من النقاد او العلماء ان مذهب ديكارت الخاص بالرياضيات والطبيعيات والميكانيكا والفلك يطبق في التاريخ والادب على المنهج الذي سلـكته . ونحن نجل ديكارت ونمجد اسمه ونذكره بالاحترام المقرون بالاعجاب ولا نقرك على اتخاذ منهجه حجاباً بينك وبين ناقديك .

لقد طعنت في علوم العرب وتاريخهم وآدابهم قبل الاسلام وبعـده بثلاثة قرون ولم تترك فرصة الا اختلقت منها غميزة ضد المدنية العربية وشرائعها وقوانينها وآدابها وتاريخها فسقتها في عمد واصرار كأنك تهـدم بمعول الحقـد الـكمين بناء شاده اعداء لك الداء . وطعنت قبل كل شيء في الرواية والتواتر والاسناد ونلت من اعراض الرواة وشرفهم وأنت تعلم او ينبغي لك ان تعلم ان الرواية والتواتر والاسناد هي وسائل العلم والدين والادب عند العرب في جاهليتهم واسلامهم . ولم يسبق لاحد من الباحثين ان طعن في تلك الوسائل من علماء

المشرقيات الاجانب المحققين امثال نولدكه وويلهاوزن وجولدزيهر ورينان وكليمان هوار ونيكلسون وليون كايتاني وبرتلميه سانت هيلير بل اقروها ووافقوا ابن قتيبة في قوله المأثور « ليس لامة اسناد كاسنادهم » ولعمر الحق لو اراد علماء العرب والاسلام ان يستنبطوا لشريعتهم وتاريخهم وآدابهم حججاً وبراهين من كتب المستشرقين الاوروبيين وحدها لاستطاعوا الى ذلك سبيلاً .

لك حقاً ان تفكر كما تشاء وتعتقد بما تشاء وتكتب وتملي ما تشاء فنحن من انصار حرية الفكر والقول ولكن ليس لك مطلقاً ان تتعدى حقك لتعتدي على حقوق الآخرين فان للدولة قانوناً يحمي حرية الفكر والاعتقاد ولهذه الدولة ايضاً قانون يحمي جمهور الامة الذين خضعوا للقانون واطمأنوا له وأطاعوه ولم يعتدوا على حقوق احد ولم يمسوا آداب معاصريهم وتاريخهم وعقائدهم.

وليس لك باسم التجديد او الابتداع والابتكار او التفريق بين العلم والدين ان تسيء الى العلم والدين معاً . فان العالم الحقيقي يستطيع ان يكتب ويقول كل ما يريد دون ان يشتم او يسب او ينتهك الحرمات ودون ان يمس القواعد الثابتة وليس العلم الصحيح سلاطة ولا شماتة بل ان للعلم سياجاً من ادب النفس وكمال الخلق . ولست من رجال التجديد حقاً لان المجددين اهل عقل وحصافة وليسوا ذوي تهجم ورعونة واستخفاف . وما تعده فكاهة لنفسك وأصدقائك تلهون به وتضحكون منه هو اقدس الاشياء في نظر الآخرين .

فالاعتدال ايها المؤلف واحترام آراء المعاصرين وحفظ كرامة الجمهور ادعى الى نشر الافكار ولا يمكن ان تنتشر الافكار الطيبة بالاكراه فما بالك بدعاية السوء والافكار الخبيثة ! ومادخل الدين في الادب بل ما دخل النبي في كتابك وهو الذي كتبت عنه في صفحة ٥١ « ولكنه توفي بعد الفتح بقليل ولم يضع قاعدة للخلافة ولا دستوراً لهذه الامة » فهل تكتب تاريخ النبي ام تكتب في اصول الحكم في الاسلام ام انت تنفث السم وتدسه في ثنايا هذا الكتاب ؟

لقد التمسنا اسكاتك بما تعرف واحتججنا بالصدق وطلبنا الفلج بالحق ولم نستعن بالخلابة ولم نستعمل المواربة . ولا نجد لختام هذه الكلمة افضل من جملة بليغة وجيزة دبجها يراع احد كتاب العصر في العمود الاول من الصفحة الاولي من العدد ٢٧ للسياسة الاسبوعية وهي « واآسفا ان الممعود ليضطرب لمرأى اطايب الطعام والاعشى ليقذى بساطع الضياء ، وهما مع ذلك يدركان لذة الطعام السائغ وبهاء النور الوضاء »

اكتوبر سنة ١٩٢٦

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com